العرب
السبت 2021/10/16
السنة 44 العدد 12211

الموتيف والكاريكاتير يسردان هروبا ملحميا إلى الحرية

الفن العربي ينسج أسطورة واقعية من ملعقة ونبتة صبّار

ألهمت الملعقة التي استعملها ستة معتقلين فلسطينيين فروا من سجن جلبوع الإسرائيلي شديد الحراسة الفنانين العرب ليجسّدوا هذا الهروب الأسطوري في أعمال فنية تنوّعت بين لوحات ومنحوتات وجداريات ورسومات كاريكاتير تُمجّد الفرار وتوثّق الانتصار الذي أتى عبر ملعقة معجزة باتت إلى جانب نبتة الصبّار الفلسطيني رمزا جديدا للحرية والنضال.

ميموزا العراوي
ناقدة لبنانية

"الموتيف" في الفن، هو العنصر أو النمط التفصيلي المتكرّر في الأعمال الذي ينطلق دوما من واقع محسوس أو حضور أثيري. وقد حفل عالم الفن التشكيلي تاريخيا بأمثال لا تحصى لظهور "الموتيف" الكفيل بأن يدلّ على هوية الشخص المرسوم مهما كانت ملامحه مُبهمة، أو يدّل على حادثة حرب محدّدة من بين الآلاف من الحروب التي خاضها البشر ضد بعضهم البعض.

ويختلف الأمر في عالمنا المعاصر، فهناك الكثير من الرموز التي تنحى بأن تكون ليس فقط رمزا مشيرا إلى أمر أو فكرة ما، بل تتّجه نحو كونها، ولمجرد حضورها، ساردة للقصة التي تدور في فضاء العمل الفني.

تخليد المعجزة

هذا ما ينطبق على منحوتة "الملعقة" للفنان الكويتي ميثم عبدال الذي جسّد فيها يدا قوية قابضة على ملعقة. الملعقة التي "قيل" أنه بها حفر أسرى فلسطينيون في أوائل شهر سبتمبر الماضي طريقهم الطويل إلى الحرية. ويجدر الذكر هنا أن الأسرى قالوا بأنهم استخدموا الملاعق من بين الأشياء التي حصلوا عليها، وليس حصرا.

الأساطير لم تعد تقيم في الماضي بل باتت ممكنة في الحاضر، مادامت نظرة الإنسان لم يغشها التعب

كما ينطبق ذلك على نبات الصبّار في أعمال فلسطينية جديدة أحضر إليها الفنانون، الصبّار كجزء حقيقي من واقع يسرد تفاصيل قصة محدّدة ترتبط حتما بما يعنيه الصبّار بالنسبة إلى الفلسطينيين فضاعف من قيمة الصبّار الذي هو واقع مباشر ورمز مُكرّس في آن واحد.

تعقيبا على ما سبق، تناقلت الأنباء خلال شهر سبتمبر الماضي خبر فرار ستة معتقلين فلسطينيين من سجن جلبوع الإسرائيلي، المعروف بأنه يتّبع أقصى أنواع ودرجات الحراسة وأساليبها، عبر نفق حفره الفلسطينيون السجناء امتد إلى عشرات الأمتار.

وحتى بعد إعادة إلقاء القبض عليهم من قبل جيش الاحتلال استمر خبر هروبهم ينتشر ويكبر حتى تحوّل إلى أسطورة، تُرجمت في أعمال فنية، تؤكّد قبل كل شيء أن مكان الأساطير ليس فقط في الماضي ولا هي تنمو حصريا حيث تنتشر الظلال الغامضة، بل هي لكل زمان لا زال فيه الإنسان يتمتّع بنظرة لم يغشها التعب.

حق العودة إلى الديار بات ممكنا عبر مفتاح وملعقة

نظرة لا زلت تعكف على انتزاع الدهشة من قلب الظلم، ثم سقيها ببشائر إحلال العدالة وإن كانت مؤجلة إلى حين.

أكثر ما يلفت في حيثية نشوء أسطورة الفرار في الأعمال الفنية أنها استمرّت بمعزل عن أبطالها، أي الأسرى، في التبلور واكتساب صيغ بصرية جديدة شرعن مصداقيتها الفنانون في أعمالهم الفنية التي تنوّعت بين لوحات ومنحوتات وجداريات ورسومات كاريكاتير.

حضر في تلك الأعمال أولاً نبات الصبّار، ليس كما هي العادة في أعمال الفنانين الفلسطينيين أي كرمز، أو كفكرة، بل كواقع هو جزء حقيقي من عملية الهروب، وسنأتي على ذكرها لاحقا على لسان الأسرى.

وحضرت ثانيا في تلك الأعمال الفنية أداة بسيطة وهي ملعقة. هي أيضا، كما الصّبار حضرت كجزء من واقع حقيقي قطع طريقه مباشرة ممّا أخبرنا إياه الأسرى حول كيفية هروبهم وصولا إلى آذان الآخرين.

الآخرين الذين ما لبثوا أن حوّلوا سرد الأسرى إلى أسطورة بمفتاح سحريّ ليس هو إلاّ ملعقة صدئة في يد أبطال، هم، لشدة واقعيتهم أصبحوا وأداتهم لا يحيلون، كما الرموز، إلى مكان أو فكرة، بل هم المحال إليهم.

بين الأسطورة والرمز

لم يقع إنتاج هذه الأسطورة على عاتق الفنانين التشكيليين والشعراء والموسيقيين فحسب، بل ذكّاها وأغناها كلام الأسرى ذاتهم بعد أن تمّ القبض عليهم. فخلافا لما توقّعه الكثيرون، لم تكن ردة فعل الأسرى العائدين إلى الأسر من جديد، بعد استغراقهم لمدة تسعة أشهر في حفر نفق خروجهم إلى الحرية، تنضح بالكآبة أو بالقهر، بل كانت على الرغم من مرارتها تضيء فيها شموس باسمة وكثيرة أدفئت بها المخيّلة الجماعية وأطلقت الإبداع الفني.

لا شك أن ذلك من أهم الأسباب التي دفعت بعملية الهروب إلى مستوى الأسطورة في وجدان الفلسطينيين وكل من يؤازرهم في قضيتهم لتصبح أكثر أهمية من جريمة إعادة سجنهم من جديد، على الأقل إلى الآن.

آن لم يُحرّك فيه أي ساكن بشأن هؤلاء الأسرى والآلاف من الأسرى الآخرين الماثلين في سجون الاحتلال لسنوات عديدة.

قد يرى البعض في إعطاء أهمية للفرار أكثر من إعطائها لحادثة إعادة الأسر منتهى القسوة وضيق النظر، ولكن حتما لن يرى ذلك كل مضطلع على التركيبة النفسية للفلسطيني، الفلسطيني الذي اعتاد على استخراج القوة من الضعف والأمل من اليأس، عادة مُكرسة في الفن التشكيلي الفلسطيني إلى يومنا هذا.

أما ردة فعل الأسرى الأبطال الذين أُعيدوا إلى سجنهم، فهي التي غذّت المخيّلة الفنية لدى الفنانين على اختلاف أساليبهم الفنية. بعض الأعمال الفنية كتبت بصريا الفصل الأخير لعملية حفر النفق وكلّلته بالنجاح الفوري، وبعضها الآخر خلّد "العنصر الدلالي"، أو "الموتيف" المُشير إلى حادثة الفرار هذه دون غيرها، صاهرا إياها بالواقع البحت.

من صبر الفلسطينيين أزهر الصبّار

واقع/ رمز مؤهل كي تخرج منه رموز وإشارات أكثر تطوّرا في المعنى وفي التجلي الفني. وهي حتما ستجد طريقها يوما إلى الذاكرة الجماعية الفلسطينية، لتتحوّل هي الأخرى إلى مصائر شأنها دوما خدمة الحق الفلسطيني.

وبالعودة إلى ما قاله اثنان من الأسرى بعد اعتقالهما من جديد والذي شكّل في حد ذاته، كما ذكرنا آنفا، مصدر وحي للفنانين، صنّاع الأساطير الحقيقية.

قال أحدهم "أجمل خمسة أيام في حياتي، رؤية فلسطين لن أنساها بالمرة هو حلم وتحقّق.. أكلت التين والبوملي والبرتقال الأخضر. رأيت أطفالا بجانب أهاليهم لأول مرة منذ إثنين وعشرين عاما.. قبّلتهم واحتضنتهم.. طالما بقيت على قيد الحياة سأبحث عن حريتي مرات ومرات".

وقال أسير ثان محكوم مدى الحياة، وبدا حسب مصادر صحافية منهكا ومتعبا من جراء التعذيب والتنكيل الجسدي وإخضاعه للتحقيق يوميا لمدة ثماني عشرة ساعة متواصلة "كانت أجمل خمسة أيام في حياتي، تذوّقت فيها طعم ثمرة الصبّار لأول مرة منذ إثنين وعشرين عاما من مزارع مرج بن عامر، وتجوّلت في أراضينا المحتلة منذ العام 1948".

خمسة أيام من الحرية ألهمت الفنانين العرب لوحات ومنحوتات تمجّد الفرار وتوثّق انتصارا مشبعا بالدلالات والرموز

ليس من سمع من الأسرى أنه استخدم الملعقة من بين أشياء أخرى للهروب، هو مُزيف للحقائق، حينما اختار أن يضع في لوحته ملعقة ولا غيرها أداة، ولا الصبّار الذي بات منذ زمن بعيد رمزا للنضال الفلسطيني يرضى بأن يكون مجرّد رمز غابر وأقل واقعية من هذا الذي ينبت اليوم وفعلا في أرض فلسطين وتحديدا في مزارع مرج بن عامر.

هذا الصبّار الذي استضاف الفلسطيني الأسير وأذاقه وطنه بلحظة. إنه زمن الواقع الغاص بالرموز حدّ أن يكونها، فتحية لصنّاع هذا الواقع.

سوريا تستذكر مبدع الخط اللامتناهي أدهم إسماعيل في معرض استعادي

دمشق – شكل المعرض الاستعادي لأعمال الفنان التشكيلي السوري الراحل أدهم إسماعيل (1922 – 1963) المقام حاليا في صالة جورج كامل الدمشقية، فرصة غنية لمحبي الفن التشكيلي للاطلاع على تجربة هذا الفنان بمختلف مراحلها عبر مسيرته التي امتدت لعشرين سنة.

والمعرض الذي يضم نحو ثمانين عملا يستعرض بتسلسل كرونولوجي تنوّع تقنيات وأدوات الراحل الفنية التي توزّعت بين الاسكتشات والدراسات واللوحات بتقنيات ومواضيع وأساليب متنوّعة، عكست غنى تجربة إسماعيل وتعدّد رؤاه الفنية خلال مسيرته القصيرة نسبيا باعتباره فنانا رائدا ومجدّدا وباحثا في الفن التشكيلي السوري بشكل خاص والعربي بشكل عام.

وتحضر المرأة بقوة في معظم لوحات المعرض، وقد تناول إسماعيل هذا الموضوع بمختلف الحالات مع توجهه نحو البورتريه والطبيعة، إلى جانب توظيفه للحرف في البعض من الأعمال مع مساحة تجريب كبيرة كان يعمل عليها في هذا السياق فاتحا آفاقا واسعة أمام من أتى بعده من الفنانين.

وبدا واضحا من لوحات المعرض مدى التجريب الذي اشتغل عليه الراحل على صعيد التقنيات لينوّع في توجهه الفني بين المائي والباستيل والحبر والزيتي والرصاص إلى جانب فن الحفر بعدة تقنيات أيضا.

لوحاته الأولى "الزجل السوري" (1947) و"ألحان وعطور" (1950) و"الدبكة" (1950) تدلّ على محاولاته البكر وتكشف عن شخصية فنية لها استقلالها.

وقد برزت شهرته في العام 1951 مع لوحة "العتّال" التي استخدم فيها "الخط اللامتناهي" محدّدا الشكل عن طريقه.

وفي العام التالي سافر إسماعيل إلى إيطاليا لدراسة الفن التشكيلي. وتؤكّد أعماله أن الدراسة صقلت تجربته. ولوحة "الفارس العربي" (1953)، التي عبّرت عن نهضة الأمة العربية وانطلاقتها، تدلّ على نضج أسلوبه في التعبير الفني وارتباطه الصميم بالقضايا القومية.

وفي السنوات (1956 – 1961) التي أمضاها بين درعا والقاهرة ودمشق، رسم العديد من اللوحات التي عبّرت عن الأحداث السياسية المعاصرة، وفق رؤيته الفنية الخاصة، وبصيغة فنية ازدادت متانة وقوة، ومنها "وراء القضبان" (1956)، "بور سعيد" (1958)، "الطائر يفكّ قيده" (1959) و"زلازل أغادير" (1960).

ثم اتجه إلى الموضوعات الجمالية ما بين 1961 و1963 وإلى استعمال الحرف العربي موضوعا لتكوينات فنية جديدة، وتلاقت أفكاره هذه مع مبادرات الفنان محمود حماد في مجال الحرف.

وقد عبّر الراحل عن حسّه الجمالي بتصوير الأرض والحركة والطبيعة والزهرة والمرأة، وعمّق تجربته الفنية في موضوعات أخرى وطوّرها كي تنسجم الحركة مع المساحة واللون حتى غدت تبدو في كل أعماله معبّرة عن رغبته في تقديم فن حديث بروح عربية بالخط واللون وعلاقاتهما اللامتناهية.

وهكذا يكون الفنان الراحل قد أسهم في تجديد لغة التعبير الفني في سوريا، وفي اكتشاف ما يملكه التراث العربي من أشكال فنية يمكن استخدامها للتعبير عن مضامين متنوّعة.

وعن المعرض قال جورج كامل مدير الصالة "الفنان الراحل أدهم إسماعيل يعتبر من أهم رواد الفن التشكيلي السوري، وقد استفاد من دراسته في إيطاليا في خمسينات القرن الماضي ليقدّم أعمالا فنية معاصرة بمفهوم عربي ذي طابع قومي، ليترك من خلالها أثرا كبيرا في المحترف التشكيلي السوري كفنان وباحث في الخط واللون والموضوع".

وأوضح كامل أن المعرض يقدّم أعمالا من مقتنيات الصالة تنتمي إلى مختلف مراحل تجربة الفنان إسماعيل منذ بداياته الفنية فترة الأربعينات من القرن الماضي وحتى وفاته عام 1963، مبينا أن المعرض يعتبر الأول لأعمال الراحل كمعرض استعادي خاص منذ سنوات طويلة.

وأدهم إسماعيل من مواليد مدينة أنطاكيا في لواء إسكندرون السليب عام 1922، حصل على شهادة الدراسة الثانوية عام 1945، واكتشف في هذه المرحلة قدراته الفنية وعمل مدرسا للتربية الفنية في حلب ثم في دمشق وزار الكثير من البلدان العربية والأجنبية التي أقام فيها مجموعة من المعارض الجماعية والفردية.

الفنان الراحل عبّر مبكّرا عن حسّه الحداثي بتصويره الزهرة والمرأة، بروح عربية بالخط واللون وعلاقاتهما اللامتناهية

وفي العام 1956 تخرّج من أكاديمية الفنون الجميلة في روما قسم الديكور، كما تعلم فن الميدالية والإفريسيك بمعاهد إيطاليا، ليعمل بعدها مدرسا للتربية الفنية في ثانويات بدمشق وفي كلية الفنون الجميلة.

وابتكر إسماعيل أسلوبا حديثا استقاه من التراث العربي التشكيلي، ومن الخط اللامتناهي في هذا التراث، ليعالج موضوعات سياسية واجتماعية معاصرة، وفق رؤيته الفنية الخاصة، ثم انتقل إلى استعمال الحرف العربي موضوعا لتكوينات فنية جديدة. والبعض من أعماله محفوظ في المتحف الوطني بدمشق ولدى وزارة الثقافة السورية وفي متحف دمّر للفنون.

ويعرف أدهم إسماعيل كواحد من الأشقاء الأربعة، وكلهم فنانون تشكيليون سوريون، وهم صدقي ونعيم وعزيز إسماعيل.

وتوفي أدهم إسماعيل في دمشق عام 1963، بينما توفي صدقي عام 1972، وتوفي نعيم عام 1979، في حين توفي عزيز العام 2019. والأخير، أي عزيز، لعب دورا كبيرا في تعليم الآلاف من السوريين أصول الفن التشكيلي في المركز الذي يحمل اسم أخيه الراحل أدهم إسماعيل، وفي زيادة الاهتمام بالفن التشكيلي في سوريا، بالإضافة إلى الحفر والنحت وتهيئة الطلاب للانتساب لاحقا إلى كلية الفنون الجميلة في دمشق.

«الفارس العربي» لوحة عبّرت عن نهضة الأمة العربية وانطلاقتها